الوحي في العقيدة الإسلامية

التهامي نقرة

تعريف الوحي :

أصل الوحي في مدلوله اللغوي : الإشارة السّريعة : وهذه الإشارة تكون بالكلام الخفي السريع الخاص بمن يوحى إليه ، بحيث يخفى على غيره ، وإن كان شديد القرب منه . وعلى ذلك ورد قوله تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلّم : « إن أتبع إلا ما يوحى إلي » (سورة يونس : 14) .

كما تكون الإشارة بدون كلام . وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكرياء : « فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » (سورة مريم : 11) .

ومن وحي الإيماء بالجوارح قول الشاعر :

نظرت إليها نظرة فتحيرت دقائق فكري في بديع صفاتها
فأوحى إليها الطرف أني أحبها فأثّر ذاك الوحي في وجناتها

ووحي الله لأنبيائه عليهم السلام لوحظ فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما : الخفاء والسرعة .

والنبيء الموحى إليه يجد ما أوحى الله به إليه مع اليقين بأنه من عند الله، سواء اكان هذا الوحي بواسطة ، أم بغير واسطة ، بصوت يتمثل لسمعه ، أم بغير صوت .

فإذا تعلّق بغير الأنبياء فهو من الإلهام .

والإلهام في الاصل : وجدان تستيقنه النفس ، وتنساق إلى ما يطلب منها ، دون أن تشعر من أين أتى ذلك . فهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور . وعلى ذلك قوله تعالى :

«وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني . إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين» (سورة القصص : 7) .

ومنه الالهام الغريزي كالوحي إلى النحل مجازا،وهو بمعنى التسخير كقوله تعالى : «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ...» (سورة النحل : 68) .

ومن الإلهام ما يلقيه الله في رُوع الانسان السليم الفطرة،الطاهر الروح . وسنوضح القول بأكثر تفصيل في استعمال القرآن لعبارة الوحي . ولنقصره في هذا البحث على الوحي السماوي . أعني الوحي الذي يأتي من الخارج ، ولا ينبع من داخل النفس ، وهو خاص بالأنبياء، والملهِم والموحي الحقيقي هو الله وحده .

من آراء الاسلاميين في الوحي :

أجمع علماء الإسلام على أن الرسل الذين بعثهم الله للأقوام والأمم،هم بشر اصطفاهم الله من معدن كريم ، وخصهم بمواهب عقلية وروحية ، تؤهلهم لتلقي الوحي عن الله ، وللاضطلاع بأعباء الرسالة السماوية،وحمْل

هداية الله إلى الناس . ومع ذلك فهم يتعرضون لما يتعرض له غيرهم من الصحة والمرض ، واللذة والألم ، والحياة والموت . وهذه التعاليم السماوية إنما يتعلّمونها بوحي من الله ، ولا يصلون إليها بعقولهم ، كما يصطفي الله من الملائكة رسلا يبلّغون عنه إلى رسله من البشر ما يوحي به إليهم من عبادة الله وإقامة دينه : « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (سورة الأنبياء : 15) .

ورسل الله إلى خلقه منزهون عن السيئات ، معصومون عن المعاصي ، متصفون بالأخلاق الكريمة كالصدق ، والأمانة ، والإخلاص والتفاني في الحق .

فالرسول وإن شارك الناس في البشرية من حيث الصورة ، فقد باينهم من حيث المعنى ، إذ بشريته فوق بشرية الناس لاستعدادها لقبول الوحي : « قل إنما أنا بشر مثلكم » .

أشار القرآن إلى طرف المشابهة من حيث الصورة ،

« يوحى إلى » (سورة فصلت : 6)

أشار إلى طرف المباينة من حيث المعنى

ومن أدلة الامام الغزالي على إثبات الوحي والنبوة :

1 — أن حركات الإنسان معجزات الحيوان . فليس حيوان يتحرك مثل حركته الفكرية والقولية والفعلية ، كذلك جميع حركات النبيء ، فهي معجزات بالنسبة إلى الإنسان ، فليس إنسان يتحرك مثل حركته . وكما لا يتصور في سنة الفطرة أن يكون من نطفة كل حيوان إنسان ، كذلك لا يتصور أن يكون من نطفة كل إنسان نبي :

« الله أعلم حيث يجعل رسالاته » (سورة الانعام : 121) .

وإذا كان نوع الإنسان قد تميز عن سائر الحيوانات بنفس ناطقة هي فوقها بالفضيلة العقلية المسخرة لها ، فإن نفوس الأنبياء عليهم السلام ،

تميزت عن نفوس الناس بالفضيلة الربانية المدبِّرة لها، والمالكة عليها والمتصرفة فيها (1) .

2 — وراء العقل طور آخر تتفتّح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب ، وما سيكون في المستقبل ، وأمور أخرى ، العقل معزول عنها ، كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات . ومن الجهل استبعاد مدركات الوحي والنبوة ، إذ لا مستند للمستبعدين والمنكرين، الا أنه طور لم يبلغوه، فظنوا أنه غير موجود في ذاته . والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان والأشكال ، وحكي له ذلك ابتداء ما فَهِمها .

وقد قرّب الله تعالى ذلك إلى الأفهام بأن أعطاهم نموذجا من خاصية النبوة ، وهو النوم؛ إذ النائم قد يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحا، وإما في مثال يكشف عنه تعبير الرؤيا . وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه وقيل له : من الناس من يسقط مغشيا عليه كالميت ، ويزول إحساسه وسمعه وبصره ، فيدرك الغيب لأنكره ، وأقام البرهان على استحالته .

فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي يحصل فيه عين يبصر بها أنواعا من المعقولات ، والحواسُّ معزولة عنها ، فالنبوة أيضا : عبارة عن طور يحصل فيه عينٌ لها نور، يكشف عن الغيب، وعن أمور يدركها العقل (2) .

والفرق بين الرؤيا الصادقة والوحي ، إنما هو فرق في الرتبة لا في الحقيقة . لأن الوحي النبوي قد يكون في حال اليقظة ، أو في حال النوم .

فالرؤيا الصادقة تمتّ إلى الوحي بصلة ، وتتّحد معه في الغاية ، وإن اختلفت عنه في الوسيلة .

---

(1) أبو حامد الغزالي : معارج القدس في مدارج معرفة النفس : 146–147 (ط مصر : 1968) .
(2) أبو حامد الغزالي : المنقد من الضلال : 149 (ط : حسان بالقاهرة) .

وقد عقد الفارابي في كتابه : «آراء أهل المدينة الفاضلة» فصلين متتاليين «في سبب المنامات» «وفي الوحي ورؤية المَلك» وفي هذا ما يوضح الصلة بينهما .

فعن عبادة بن الصامت عن النبيء صلى الله عليه وسلم قال : رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» (رواه الاربعة) .

وفي رواية : سبعين . واختلاف الروايات في العدد يدل على أنه غير مقصود لذاته وإنما المراد الكثرة في تفاوت المرتبة بينهما ، وعدد السبعين عند العرب قد يؤتى به للتكثير .

ولعل معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الفطري الخاص بالأنبياء .

ففي النوم ترتفع الحواس الظاهرة فتتعرض النفس إلى معرفة ما تتشوف إليه في عالم الحق،فتدرك في بعض الأحيان لمحة من الأمور المستقبلة،وتعود به إلى ذاكرتها ، فإن كانت غير جلية بالمثال والخيال ، فتحتاج إلى تعبير . وإن كانت جلية لخلوصها من المثال والخيال،فلا تحتاج إلى تعبير . والسبب في وقوع هذه اللمحة للنفس في النوم أنها ذات روحانية بالقوة (3) .

وقد جاء في سورة يوسف ما يؤكد أثر الأحلام في صدق التنبؤ بالغيب . ولئن كان العصبيون والثرثارون أكثر أحلاما من غيرهم ، والعقل لا يستطيع أن يسلّم بأن الله خص هؤلاء ، أو أغدق عليهم فيضه ، فقد وضع أهل الحديث بالاعتماد على بعض الآثار ما يفرق بين الرؤيا الصادقة وأضغاث الأحلام .

3 — من المعارف ما هو خارج عن مدركات العقل والتجربة الحسية ، وتلك إحدى خواص الوحي والنبوة ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أنه عرّفنا ذلك ، وشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن إدراك ما يُدرك بعين النبوة .

---

(3) ابن خلدون : المقدمة : 178—180 (ط. بيروت — 1961) .

فإن وقع لك الشك في شخص معين أنه نبي ، فلا يحصل لك اليقين إلا بمعرفة أحواله إما بالمشاهدة ، أو بالتواتر والتسامع : فإنك إذا عرفت الطب والفقه مثلا ، يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم ، وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم . فكذلك إذا فهمت معنى النبوة ، فاكثرت النظر في القرآن والأخبار ،يحصل لك العلم الضروري بكونه صلى الله عليه وسلم على أعلى درجات النبوة ،واعضد ذلك بتجربة ما قاله عليه السلام في العبادات ، وتأثيرها في تصفية القلوب وكيف صدق في مثل هذه الأقوال :

« من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم »

« من أصبح وهمومه هم واحد (هو التقوى) كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة »

« من أعان ظالما سلطه الله عليه » .

فإذا جربت ذلك في آلاف ،حصل لك علم ضروري لا تتمارى فيه (4) وقد كان فلاسفة الإسلام حريصين كل الحرص على أن يوفقوا بين الفلسفة والدين ، بين العقل والنقل ، بين لغة الأرض ولغة السماء ، فكوّنوا نظرية الوحي والنبوة .

والفارابي هو أول من ذهب إليها وفضّل القول فيها ، بحيث لم يدع فيها زيادة لفلاسفة الإسلام من بعده إلاّ قليلا . وهذه النظرية التي هي أسمى جزء من مذهبه الفلسفي ، تقوم على دعائم من علم النفس وما وراء الطبيعة ، وتتصل اتصالا وثيقا بالسياسة والأخلاق (5) .

فمن أقواله في الوحي : الروح القدسية لا تشغلها جهة تحت ، عن جهة فوق . ولا يستغرق الحس الظاهر حسّها الباطن . وقد يتعدى تأثيرها

---

(4) المنقذ من الضلال : 151 .

(5) إبراهيم مدكور : في الفلسفة الاسلامية : 70 (ط. دار المعارف بمصر) .

من أبدانها إلى أجسام العالم وما فيه ، وتقبل المعلومات من الروح والملائكة بلا تعليم من الناس . والأرواح العاميّة الضعيفة إذا مالت إلى الباطن غابت عن الظاهر ، وإذا مالت إلى الظاهر ، غابت عن الباطن ....

وإذا اجتمعت من الحس الباطن إلى قوة،غابت عن أخرى ، مثل البصر يُخيَّل بالسمع ، والخوف يَشغل عن الشهوة، والشهوة تشغل عن الغضب ، والفكرة تصدّ عن الذكر ، والتذكر يصد عن التفكر . أما الروح القدسية فلا يشغلها شأن عن شأن (6) » .

وقد يكون الفرابي تأثر بآراء أرسطو في «رسالة الأحلام» وكتاب «النوم واليقظة» الذي أشار إليه الكندي في بعض رسائله (7) .

وميزة النبيء في رأي الفارابي أن تكون له مخيلة قوية تمكنه من الاتصال بالعقل الفعال أثناء اليقظة ، وفي حال النوم ... وبهذه المخيلة يصل إلى ما يصل إليه من إدراكات وحقائق تظهر على صورة الوحي أو الرؤيا الصادقة ... ودون الأنبياء من يرى بعض الصور الشريفة،ومن يتخيل في نفسه هذه الأشياء كلها ، ولكنه لا يراها ببصره . ودون هذا من يرى ذلك في نومه فقط .

ولكن الفارابي حين جعل المخيلة في الوحي طريقا إلى الاتصال بالعالم العلوي ، واختراق حجب الغيب،وهو ما عبر عنه بالعقل الفعال، فقد كاد يجعل الوحي السماوي قوة نفسية تسمو بصاحبها عن طريق المخيلة إلى هذه المرتبة . وعندئذ تكون الحقيقة النبوية والحقيقة الفلسفية نتيجة من نتائج الوحي ، وأثرا من اثار الفيض الالهي على الانسان،إما عن طريق التخيل بالنسبة للنبي ، وإما عن طريق التأمل بالنسبة للفيلسوف ، مع أن أهل الحق فيما يصرح به الشهرستاني : «أن النبوة ليست صفة راجعة إلى النبيء ، ولا درجة يبلغ

(6) الفارابي : الثمرة المرضية في بعض الرسالات الفارابية : 75 . (ط. ليدن : 1890)
(7) انظر رسائل الكندي : 368 (ط. القاهرة 1950)

إليها أحد بعمله وكسبه ، ولا استعدادا نفسيا يستحق به اتصالا بالروحانيات ، بل رحمة يمنّ الله بها على من يشاء من عباده (8)» .

ومن هنا فإن باب النبوة ليس مفتوحا لكل أحد مهما عظم إشراقه ، أو سمت به نفسه . وربما قصد الفارابي أن النبيء يمتاز عن سائر البشر بمخيلة خاصة فطرية لا مكتسبة ، وإن لم يصرح بذلك ؛ أو لعله قصد إثبات النبوة والوحي إثباتا علميا ليردّ على الصابئة الذين يستبعدون اتصال الروحاني بالجسماني ،وعلى منكري النبوة من أساسها ، كابن الراوندي وأبي بكر الرازي الطبيب ، في القرنين الثالث والرابع للهجرة .

فقد عُرف عن ابن الراوندي ،أنه كان يردد أقوالا جرت على ألسنة البراهمة ، كالاستغناء عن الرسل بما منح الله خلقه من عقول يميزون بها الخير من الشر ، ويفصلون الحق عن الباطل ، وفي هدي العقل ما يغني عن كل رسالة .

كما عُرف عن الرازي الطبيب ، أنه كان يصرح بأن الأنبياء لا حقّ لهم في أن يدّعوا لأنفسهم ميزة خاصة ، عقلية أو روحية ، فإن الناس كلهم سواسيه ، وعدل الله يقتضي ألاّ يمتاز واحد على آخر ، وأن الأديان في جملتها هي أصول الحروب التي وقعت فيها الإنسانية من قديم . وعدّ البيروني كتابي الرازي : (مخاريق الأنبياء أو حيل المتنبئين) و«نقض الأديان ، أو في النبوات» بين الكفريّات (9) .

وقد صادف الكتاب الأول نجاحا لدى بعض الطوائف التي انتشرت فيها الزندقة والالحاد ، وخاصة لدى القرامطة (10) .

---

(8) الشهرستاني : نهاية الاقدام فى علم الكلام : 462 . (ط. القاهرة : 1328هـ)

(9) البيروني : رسالة في فهرست كتب محمد بن زكرياء : 13 أبو حاتم : اعلام النبوة 1936 ص 42 .

(10) البغدادي : الفرق بين الفرق : 241 (ط. القاهرة : 1328هـ) .

ويذهب ماسنيون إلى أن أثره امتدّ إلى الغرب ، وكان منبع تلك الاعتراضات التي وجهها بعض مفكري أوروبا في عهد فردريك الثاني (11) .

وإذا كان رجال الاسلام في الصدر الأول قد سلّموا بوسائل الوحي وآمنوا به ، ولم يحاولوا أن يسألوا عن سره وأساسه ، ولا عن المعجزات في عللها وأسبابها ، وآمنوا إيمانا صادقا بكل ما جاء من عند الله،دون بحث أو تحليل ، فإن هذا الإذعان الفطري لم يبق في مأمن من الشكوك والأوهام ، إذ بدأ المزدكية والمانوية من الفرس وأنصارهم من زنادقة العرب منذ القرن الثاني للهجرة،ينكرون النبوة والأنبياء،ولا يرون حاجة البشر إليهم (12) .

وقد يكون جهد الفارابي في نظرية النبوة غير موجّه إلى أهل السنة الذين يؤمنون بكل ما جاء في القرآن والحديث متصلا بالوحي وكيفياته ، ولم يكونوا في حاجة إلى من يقنعهم بصحة ذلك ، وإنما كان موجّها إلى أولئك الذين أنكروا النبوة ، وحاربوا الإسلام ، بل حاربوا الأديان على اختلافها ، فلم ير الفارابي بدّا من أن يوضح هذه القضية بمعزل عن النصوص الدينية التي لا يؤمنون بها ، بل بمعزل عن أية بيئة أو وسط خاص (13) .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن ابن خلدون صنّف النفوس البشرية إلى ثلاثة أصناف :

– صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحاني،فينقطع إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية .

– وصنف متوجه بالحركة الفكرية نحو العقل الروحاني، والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك .

---

(11) Encyclopédie de l'Islam; Râzi

(12) إبراهيم مدكور : في الفلسفة الاسلامية : 78 .

(13) المصدر السابق : 99 .

– وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة : جسمانيها وروحانيها إلى الملائكة، ليصير في لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ، ويحصل له شهود الملإ الأعلى في أفقهم ، وسماع الكلام النفساني والخطاب الالهي في تلك اللمحة . وهؤلاء هم الأنبياء ، جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة ، وهي حالة الوحي ، فطرة فطرهم الله عليها ، وجبلّة صورهم فيها ، ونزههم عن موانع البدن وعوائقه بما ركب في غرائزهم من القصد والاستقامة (14) .

الوحي في القرآن وطرقه :

وكل وحي وايحاء ورد في القرآن فهو من الله تعالى باستثناء آيتي الأنعام : (112 و121) كقوله تعالى :

«وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم» (الأنعام: 121) فالوحي في هذه الآية كما في الآية التي قبلها جاء بمعنى الوسوسة،وفيها السر والخفاء.

واستعمل القرآن فعل الوحي إحدى وسبعين مرة على النحو الآتي : في سبع وستين مرة تعدى الفعل بإلى ، ومرة واحدة تعدى بفي: « وأوحى في كل أسماء أمرَها (سورة فصلت : 12) أي : بث فيها ما به نظامها .

ومرة واحدة تعدى باللام في آية الزلزلة :

« يومئذ تحدّث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها » .

وذلك لما في معنى اللام من اختصاص وصيرورة ، وتقوية إيصال ، وهي معان عرفها اللغويون في حرف اللام .

فكان إيحاء الله للأرض هنا بمعنى : إيداع القوة فيها . وهو أنسب لجو التسخير والمطاوعة ، وليس بمعنى الأمر ، لأن الأمر يقتضي توجيه

(14) ابن خلدون : المقدمة : 170–171 .

الحديث إليها وهي جماد ، ويعوزه هنا ما للوحي في معناه الحقيقي من دلالة السّرعة والخفاء .

وقال أبو حيان : (وعدّى أوحى باللام ، وإن كان المشهور تعديتها بإلى ، مراعاة للفاصلة في القرآن. ولكن الأمر – فيما يبدو – أعمق من مجرد اعتبار الفاصلة . ذلك أن الموحى إليه يختلف باختلاف الحرف الذي يتعدى إليه الفعل . فإن كان من الأحياء تعدى إليه الفعل بحرف (إلى)، كما دلّ على ذلك استقراء الآيات السبع والستين،التي ورد فيها فعل الوحي متعديا بإلى . ومنها آية النحل : 68 .

وإن كان جمادا كالسماء والأرض تعدى الفعل إليه بحرف (في)، كما في آية فصلت : 12 فإن هذا الحرف يدل على الظرفية وهي تفيد التمكين ، أو بحرف اللام ، كما في آية الزلزلة (15) .

أما طرقه :

فإن وحي الله لأنبيائه لا تخرج عن ثلاثة أنحاء ، فصّلها القرآن في قوله تعالى :

« وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا ، فيوحي بإذنه ما يشاء » (سورة الشورى : 51) .

وهي :

1 – الوحي بمعنى الإلهام والقذف في القلب،أو المنام . فمن القذف في الرُّوع « القلب » قول النبيء صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث في روعي : أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها . فاتقوا الله وأجملوا في الطلب . (رواه أحمد)

(15) بنت الشاطىء : التفسير البياني للقرآن الكريم : 95–97 (ط. مصر : 1968) .

وقد يكون الوحي بالرؤيا في النوم، كما أوحى إلى إبراهيم في ذبح ولده.

وعن مجاهد أن داود عليه السلام ألهمه الله الزبور في صدره، فكتبه حفظا .

فإن قيل لم خصّ هذا القسم بتسميته وحيا، مع أن الاقسام الأخرى هي وحي أيضا بدليل أن الله أسمع موسى كلامه من غير واسطة وسماه وحيا ؟ « فاستمع لما يوحى » (سورة طه : 13) .

قال الإمام الرازي في تفسيره لآية الشورى : « واعلم أن كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة وحي ، إلاّ أنه تعالى خصّص القسم الأول باسم الوحي ، لأن ما يقع في القلب على سبيل الإلهام ، يقع دفعه؛ فكان تخصيص لفظ الوحي به أولى » .

أو اعتبار أن هذا القسم هو الغالب والكثير فكانت التسمية لهذا السبب . من باب تسمية الغالب، وإلا فهو وحي كله، سواء أكان وصول الوحي من الله إلى البشر بواسطة مبلّغ ، أم من غير واسطة، وسواء أسمع كلام الله مباشرة أم لم يسمعه مباشرة .

2 — أن يكلم الله رسوله بدون واسطة ، ولكن من وراء حجاب، حتى لا يكون سبحانه مختصا بمكان معين ، وجهه معينة .

قال الرازي : والمعنى أن الرجل إذا سمع كلاما ، مع أنه لا يرى ذلك المتكلم ، كان ذلك شبيها بما إذا تكلم من وراء حجاب ، والمشابهة سبب جواز المجاز . وبيْن الفرق الإسلامية خلافات كبيرة في كلام الله لا طائل من ورائها هنا .

وقد أسمع الله كلامه موسى بلا واسطة . قال تعالى : «وكلّم الله موسى تكليما » (سورة النساء : 164) .

ويمتنع حمل تكليم الله لموسى في الآية على المجازْ،لأن أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر ، ولا تؤكَّد بالتكرار . فتقول:أراد الحائط أن يسقط ، مجازا ، ولا تقول : أراد الحائط أن يسقط إرادة شديدة (16) .

3 — أن يرسل رسولا كجبريل ، فيتمثل للنبيء رجلا في صورة بعض الأعراب، كما صح في الحديث،فيوحي إليه ما يشاؤه الله، ويعي ما يقوله . وكل ذلك يحصل في لحظة هي أقرب من لمح البصر،فسمّي وحيا، لأن الوحي في اللغة الإسراع كما بينا .

قال ابن خلدون:وهذه الحالة ، التي يتمثل فيها الملَك رجلا يخاطِب، هي رتبة الأنبياء المرسلين . ولذلك كانت أكمل من الحالة التي يسمع فيها النبيء دويا — على ما حققوه — لأنها مبدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل ، فيعسر بعض العسر .

ومن هنا كان تنزّل نجوم القران وسوره وآيه حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة . فسورة براءة مثلا نزلت عليه كلها أو أكثرها وهو يسير على ناقته في غزوة تبوك ، بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصل في وقت ، وينزل الباقي في وقت آخر .

وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الديْن ، وهي ما هي في الطول ، بعدَ أن كانت الآية تنزل بمكّة، مثل آيات الرحمن والمدثّر ، والذّاريات ونحوها من الآيات القصار .

وربما جعلوا طول الآية وقصرها من العلامات التي يميز بين المكي والمدني (17) .

سأل الحارث بن هشام رسول الله صلى الله عليه وسلم : وكيف يأتيك الوحي ؟ فقال الرسول : « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدّه

(16) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن : 111 (ط. القاهرة : 1973) .
(17) ابن خلدون : المقدمة : ج 17 .

علي ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلّمني فأعي ما يقول :

قالت عائشة : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصَم عنه ، وإن جبينه ليتفصّد عرقا » .

وكان من هذه الشدة عليه ما أورده ابن القيم : (حتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض عند نزول الوحي إن كان راكبها .

ولقد جاءه الوحي مرة ، وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه حتى كادت ترضّها (18) .

وكان يحدث له عند الوحي من الغيبة والغطيط ما هو معروف . (وسبب ذلك أن الوحي – كما قررناه – مفارقة البشرية إلى المدارك الملكية ، وتلقّي كلام النفس ، فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها ، وانسلاخها عنها من أفقها إلى ذلك الأفق الآخر (19) .

وهذا هو معنى الغطّ الذي عبر عنه الرسول في مبدإ الوحي بقوله : « ... فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ... الخ » وكذلك حدَث ثانية وثالثة كما في الحديث الذي أخرجه البخاري وروته عائشة .

وحكمة هذا الغطّ الذي فسروه بالضم الشديد الضاغط : تقوية روحانية النبيء صلى الله عليه وسلم ، حتى يقوى على الاتصال بالملك والفهم عنه . وعندما يتكرر الوحي ، ويكثر التلقي ، يسهل ذلك الاتصال .

وفي جواب الرسول عن سؤال الحارث ، وردت عبارة الوعي بصيغة الماضي أولا « وقد وعيت ما قال » وبصيغة المضارع ثانية « فأعي ما يقول » وفي ذلك بلاغة (وهي : أن الكلام جاء مجيء التمثيل لحالتي الوحي . فمثّل

---

(18) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد 18/1 (المطبعة المصرية) .
(19) ابن خلدون : المقدمة : 173 .

الحالة الأولى بالدوي الذي هو في المتعارف غير كلام ، وأخبر أن الفهم والوعي يتبعه غبّ انقضائه ، فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله التعبيرُ عنه بالماضي المطابق للانقضاء والانقطاع . ومثّل الملك في الحالة الثانية برجل يخاطِب ويتكلم ، والكلام يساوقه الوعي ، فناسب التعبير عنه بالمضارع المقتضي للتجدد (20) .

والأصناف الثلاثة التي بيّن فيها القرآن طرق الوحي لأنبيائه ، كلها من الوحي الالهي ، لأن الشيطان كما أثبت أهل السنة — لا يقدر على إلقاء الباطل في أثناء الوحي لقوله تعالى :

«وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيء إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أُمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يُحكم الله آياته ، والله عليم حكيم» (سورة الحج : 52) ، وقد اجتمعت كلها لمحمد صلى الله عليه وسلم .

فقد كان في بدء الوحي يرى الرؤيا الصادقة ، كما ورد في حديث روته عائشه : « أول ما بديء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي : الرؤيا الصالحة في النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ... » (أخرجه البخاري) .

وسمع كلام الله من وراء حجاب ليلة المعراج، إذ استمع إلى ما فرض عليه وعلى أمته .

قال النيسابوري المتوفى سنة 728هـ في تفسيره لقوله تعالى : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » (سورة النجم : 10) .

(يعني أن الوحي كان ينزل عليه بواسطة جبريل ، وقد ارتفعت في المعراج تلك الواسطة ، ثم ظل جبريل يأتيه إلى آخر عمره ، وهي أكثر الطرق في نزول الوحي عليه (21) .

---

(20) ابن خلدون : المقدمة : 172 .

(21) النيسابوري : غرائب القرآن في رغائب القرآن : 29/27 (ط القاهرة : 1970) .

قال تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيئين من بعده » (سورة النساء : 163) .

يعني بالطريق الأكثر ، وهو القسم الثالث (22) .

وتشير هذه الآية إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل ، ولا أوّلهم ،ولكنه خاتم الرسل المكمِّل لهدايتهم . فوحيُه سبحانه إليه كوحيه إليهم ، أي : مثله في جنسه وموضوعه وأغراضه .

شبهات حول الوحي :

ثم إن من لم يؤمن بما وراء الطبيعة وبعالم الغيب ، ولم يدرس أصول العقائد ، وحكمة الوجود وسننه ، ولم يعرف العلاقة التي تربط بين الوحي السماوي وموضوع الرسالة ، فقد ضلّ في فهم حقيقة الوحي ،ونبوات الأنبياء! فبعضهم فهم الوحي على أنه حلول روح الله في روح الملهم ، فألّه بعض الأنبياء،لأن من حل فيه روح الله صار إلها . إذ المسيح عليه السلام لم يكن إلها عند المسيحيين القائلين بالأقانيم الثلاثة وبعقيدة التثليث إلا بهذا الحلول ، وهو ما ينفيه الإسلام نفيا مطلقا . فالله سبحانه لا يحل في غيره .

وبعضهم كان ينكر الوحي والنبوة من الأساس بدعوى أن العقل والعلم يغنيان عن هداية الرسل .

وبعضهم الآخر يتحدث عن الوحي والأنبياء ، كما يتحدث الناس عن الدروشة والدراويش ، أو كما يتحدث علماء النفس عن أبطال التاريخ وعظماء الرجال وقادة الثورات .

وكل من حاول أن يطبق مقاييس العلوم التجريبية أو النظرية على حقيقة الوحي والنبوة فقد أخطأ السبيل ، وابتعد عن الحقيقة .

---

(22) المصدر السابق : 38/75 – 39 .

ومنشأ الخلاف بين المؤمنين بالرسالات السماوية وغير المؤمنين بها ترجع أساسا إلى مفهوم الوحي عندهم .

أما فكرة الحلول في الوحي :

فقد أبطلها النقل والعقل وأوضحا وجه فسادها . قال تعالى :

« ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلتْ من قبله الرسل ، وأمّه صدّيقة كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر انّى يؤفَكون» . (سورة المائدة : 75) .

وإذا كان المسيحيون يعتقدون بعصمة المسيح ،لأنه عندهم رب وإله ، ولأنه المخلّص للناس من العقاب على الخطيئة اللازمة لكل ذرية آدم بالوراثة ، فإن العقيدة الاسلامية تقول بعصمة الأنبياء كلهم من المعاصي والرذائل صغيرها وكبيرها ، لأن الله اصطفاهم من خيرة البشر ، وحفظهم من آفات الرذيلة والشر ، وبأن كل نفس بما كسبت رهينة ، وأنْ ليس للانسان إلا ما سعى فلا يؤاخذ أحد بخطيئة آخر ، ولا أمة بجريرة أخرى :

« تلك أمة قد خلت . لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون » (سورة البقرة : 134) .

وبنو إسرائيل لا يقولون بهذه العصمة ، بل إنهم يرمون بعض الأنبياء في كتبهم المقدسة بما ينافي مقام النبوة وحسن الإسوة وكمال الخلُق . ويردّ كثير من مفكري الإسلام على فكرة الحلول بما فيه مَقنع ، ويقيمون الأدلة المفحمة على أن ما يقضي باندماج الخلق في الخالق، أو حلول الخالق في الخلق غير مقبول عقلا، لأنه يستلزم أن يكون الشيء واحدا ومتعددا في آن واحد . وفي هذا المعنى يقول ابن سينا :

« إن قول القائل : إن شيئا ما يصير شيئا آخر ، لا على سبيل الاستحالة من حال إلى حال ، ولا على سبيل التركيب مع شيء آخر ليحدُث شيء ثالث ،

بل على أنه كان شيئا واحدا فصار واحدا آخر،قول شعري غير مقبول . فإنه إن كان كل واحد من الأمرين موجودا،فهما اثنان متميزان ، وإن كان أحدهما غير موجود، فقد بطل الذي كان موجودا (23) » .

وأما فكرة الاستغناء عن الدين بالعقل والعلم :

فقد دعموها بأن الذي يأتي به الرسول من الوحي لم يخل من أحد أمرين : إما أن يكون معقولا ، أو لا .

فإن كان معقولا فقد كفانا العقل بادراكه والوصول إليه،فلا حاجة إلى الرسول . وإن لم يكن معقولا ، فلا يكون مقبولا ؛ لأن قبول ما لا يعقل خروج عن المنطق. ويُردّ هذا القول بأن العقول متفاوتة، ولا شيء كالعقل يرضى به صاحبه،فكل واحد يتصور أن عقله أصح وأنفذ ، ومن هنا ينشأ النزاع بين الأفراد وبين الأمم . ثم إن الانسان ليس عقلا فقط ، ولكنه عقل وعاطفة، وقد تطغى العاطفة على العقل وتستبدّ به، فتحمل صاحبها على المهالك ، فلا غنى للناس عن قانون إلهي يخضع له الناس جميعا .

وقولهم : إن العقل دل على أن الله حكيم ، والحكيم لا يتعبّد العقل إلا بما تدل عليه عقولهم ، فإنه يكون صحيحا لو كانت تعاليم الله للبشر قاصرة على تنظيم شؤون حياتهم التي يحيونها ، ويفهمون عنها الشيء الكثير بتجاربهم ومعارفهم ، أمّا وهي شاملة لحياة أخرى لا يعرفون عنها شيئا ، فكيف يترك لهم الحكيم تنظيم حياة لا علم لهم بها ؟

إن من رحمة الله بخلقه أن يتولّى هو بنفسه وضع تلك النظم التي تكفل لهم السعادة في حياتهم الثانية .

ثم إن حكمة الحكماء وعلومهم ما هي إلا ظنون أو حقائق ناقصة،لا تبلغ من عالم الغيب،إلا أنه موجود مجهول ، وهي عرضة للتخطئة والخلاف،

(23) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات : 180 (ط. القاهرة) .

لأنها لا تملك سلطانا غيبيا كالذي يملكه الأنبياء بالوحي . والانسان يأبى طبعه أن يخضع خضوع التعبد لمن هو مثله في بشريته ، وليس له دعم من السماء . ولو سلّمنا جدلا أن من الزعماء من يفعل في قومه من التأثير والتغيير ما يفعله الرسل في أقوامهم ، فإنه لا تصح التسوية المطلقة بينهم بحال . فالزعماء يصنعون أنفسهم ، وتصنعهم الظروف ؛ والأنبياء يصنعهم الله . وكم رأينا من زعماء جرّوا البشرية إلى الخراب والدمار ، وليس الوحي والنبوة إلا هذا الدفع الخارجي الذي يفعل الأعاجيب، ويصنع المعجزات؛ فأين الثورات والحركات الإصلاحية من أثر النبوة في ارتقاء الأمم وهداية الناس ، وتزكية نفوسهم بما تصلح به أحوالهم ؟

أما اعتبار الوحي والنبوة ضربا من السذاجة أو الإلهام الغامض، أو الفنون المكتسبة، فإن تهافتها يغني عن دحضها وتفنيدها؛ ذلك أن الرسول الذي يغيّر مجرى التاريخ، ويقلب الأوضاع القائمة رأسا على عقب، لا يتصور العقل أن يكون ساذجا كما أورده جورج بوست في مؤلفه الشهير : (قاموس الكتاب المقدس) : (أما النبوة فكانت على أنواع مختلفة كالاحكام والرؤى والتبليغ . وكثيرا ما كان الأنبياء يرون الأمور المستقبلة بدون تمييز أزمنتها ، فكانت تقترن في رُؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة، كاقتران نجاة اليهود من الاشوريين بخلاص العالم بواسطة المسيح ، وكانتصار اسكندر ذي القرنين بمجيء المسيح الخ ... أما معيشة الأنبياء فكانت ساذجة للغاية . وكثير منهم كانوا متنسكين أو طوّافين يستضيفهم الأتقياء ...

ثم هو يصوّرهم أخرى في صور العباقرة من أهل الفن فيقول : (... وتأسست أيضا مدارس أخرى للأنبياء في بيت ايل واريحا وأماكن أخرى. وكان يعلّم في هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر ، ولذلك كان الأنبياء شعراء ، وأغلبهم كانوا يترنمون ويلعبون على آلات الطرب (24)) .

---

(24) جورج بوست : قاموس الكتاب المقدس : 10/12 .

ولسنا ندري من أين استقى الكاتب هذه المعلومات عن أنبياء الله ؟ فنحن لا نفرق بين نبوات الأنبياء ، ولا بين كتب الوحي وما أنزل الله على رسله – وإن باعد بينها الزمان – لأنها متفقة في المقصد والغاية ، ولا يصح التباين في جوهرها ، لأن مصدرها واحد وهو الله .

ولعل هذه الفكرة السائدة لدى مؤرخي الأديان في الغرب ، وهي أن أنبياء العهد القديم ، كانوا يتدارسون التوراة في مدارس خاصة بهم وبأبنائهم ، باعدت بينهم وبين إدراك حقيقة الوحي ، وقادتهم – بكل يسر – إلى القياس؛ فقالوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم : إنه أخذ عن ورقة بن نوفل – وهو عالم بالنصرانية –شيئا من علم أهل الكتاب ، وقالوا : تلقى المعرفة عن اليهود والنصارى الذين كانوا يسكنون في أطراف مكة ، وكانوا عبيدا لا يسمح لهم رؤساء قريش أن يسكنوا في مكة حرمهم المقدس الخاص بأوثانهم . وقالوا إنه كان شغوفا بأن يرى ويسمع ويعرف ، وكان حرمانه من التعليم جعله أشد للمعرفة شوقا ، وبها تعلقا . كل ذلك ليخلصوا إلى تعليل ما ظهر به صلى الله عليه وسلم من دعوى النبوة ، ويعنون أنه سمع من أخبارها فتعلقت نفسه بها ، على طريقتهم في الاستنباط ، وما يسمونه النقد التحليلي .

ويعجبني في هذا الصدد ما قاله الأفغاني لبعض مجادليه من المسيحيين : (إنكم فصّلتم قميصا من رقاع العهد القديم ، وألبستموها للمسيح عليه السلام ، ونحن نقول لهم : إنكم فصلتم قميصا آخر مما استنبطتم من تاريخ الإسلام ، لا من نصوصه ، وحاولتم خلعه على محمد صلى الله عليه وسلم) (26) .

وأما الفكرة القائلة بأن الوحي الهام يفيض من نفس النبيء ، لا من الخارج ، فإنها في مؤدّاها إنكار للوحي الالهي ، ولنبوات الأنبياء .

وقد جمح الخيال ببعض الباحثين الغربيين في ذلك ، فخرجوا عن إطار الحقيقة التاريخية إلى تصوراتهم الذاتية بلا حجة ولا برهان وهو عين التحكّم !

---

(25) محمد رشيد رضا : الوحي المحمدي 85–87 (ط. مصر : 1948) .
(26) المصدر السابق : 82 .

ويضيق المقام عن عرض ما قاله المستشرقون في الوحي، ولكن نقتصر هنا على إيراد أمثلة ونماذج منه ، وهي في جملتها تتعلق بالأعصاب الثائرة ، والفكر الذي أثّرت فيه ظواهر ذاتية محضة ، والخيال الشاطح في حالات الانجذاب والغيبوبة ، والذي هو ثمرة الميول الداخلية ، والتأملات الباطنية :

يقول قولد تزيهر : (فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينية عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثّر بها تأثّرا عميقا ... لقد تأثر بذلك تأثرا وصل إلى أعماق نفسه ، أدركها بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية ، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه ، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيا إلهيا » .

فقد جعل مصدر المعرفة المحمدية غير إلهي ، بل جعل الشعور بالوحي أشبه بالحالة المرَضية التي يصاب بها بعض أفذاذ الرجال !

فهو يقول :

« لا نريد أن نتتبع خطوة فخطوة المراحل (الباتولوجية) التي نشأ فيها الشعور بهذا الوحي ،واعتقاده وتثبيته في نفسه . ومن أجل هذا علينا أن نتذكر كلمة ذات معنى قالها (هارناك) عن الأمراض التي تصيب الرجال الذين هم فوق البشر دون سواهم ، والتي يستقون منها حياة جديدة كانت قبل ذلك مجهولة) (27) .

وقال لوبون: «قيل إن محمدا كان مصابا بالصرع ، ولم أجد في تاريخ العرب ما يبيح القطع في هذا الرأي . وكل ما في الأمر ما رواه معاصرو محمد وعائشة منهم : أنه كان إذا أنزل الوحي عليه اعتراه احتقان وجهي فغطيط فغشيان . وإذا عدوت هوس محمد ككل مفتون وجدته حصيفا سليم الفكر) .

---

(27) قولد تزيهر : العقيدة والشريعة في الاسلام : 12 (ط. مصر : 1948) .

فقد جعل ما يعتريه أثناء الوحي أشبه بالنوبة التي تعتري المهوّسين : (ويجب عدُّ محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية، كأكثر مؤسسي الديانات. ولا كبير أهمية لذلك. فلم يكن ذووا المزاج البارد من المفكرين، هم الذين ينشئون الديانات ، ويقودون الجموع ...) (28) .

ويقول درمنقام مصوِّرا ما وصل إليه محمد من تأملاته في الخلوة: (العالم غيب كله ، ولكن ألا يكفي أن يفتح الانسان عينيه ليرى ، وان يرهف أذنه ليسمع ؟ ليرى الحق ويسمع الكلام الخالد ، ولكن للناس عيونا لا ترى ، وآذانا لا تسمع ، أما هو فيحسب أنه يسمع ويرى . وهل تحتاج لكي تسمع ما وراء السماء من أصوات إلا إلى قلب خالص ، ونفس مخلصة ...) (29) .

فهذا الكاتب يلبس الكلام حلة من طراز البيان، ولكن ذلك لا يغني من الحق شيئا ، وإنه لحسن الثناء في الظاهر ، ولكنه كما يقال : يسرّ حسوا في ارتغاء ، لأن مخترَعات الخيال ومبتدَعات الرأي لا تجدي في مثل هذه البحوث ، وإلا فما معنى قوله : (فيحسب أنه يسمع ويرى ؟) أ ليس في هذا الكلام إثباتا لنبوة نفسية ، ونفيا لنبوة إلهيّة أو لاهوتيّة كما يقول المسيحيون .

وطالما بقيت هذه النقطة محل خلاف بينهم وبين المسلمين، فإن هوة الخلاف ستبقى عميقة واسعة .

ثم ما معنى قول الكاتب : إن محمدا عرف المسيحيين في مكة والشام ، وعرف أن لهم دينا أُوحي به ، وأن أقواما غيرهم نزلت عليهم كلمة الله ، وعرفوا الحق ووعوه ، وإنه كان يتردد على حِراء في رمضان من كل عام سنوات متتالية ، وهنالك كان يزداد به التأمل ابتغاء الحقيقة ... وقد نسي النهار والليل ، والحلم واليقظة ، وكان يقضي الساعات الطوال

---

(28) ق : لوبون : حضارة العرب : 141–145 (ط. مصر : 1948) .
(29) اميل درمنقام : حياة محمد : م. المنار 87/30 .

جاثيا في الغار أو مستلقيا في الشمس ، أو سائرا بخطوات واسعة في طرق الصحراء الحجرية ؟) (30) .

إن هذه المعلومات الدقيقة التي يقدمها الكاتب بأسلوبه العذب،قد لعب فيها الخيال دورا كبيرا . فإذا كانت هذه الآراء يمثّلها من المستشرقين ، من عُرفوا بالاعتدال ورصانة البحث ، ولم يؤخذ عليهم حقد ولا عداء للاسلام ولنبيه مثل درمنقام ، ولوبون ، فكيف بمن يتحاملون عليهما تعصبا ، وكيف بمن تتقلب أقلامهم وهم يتحدثون عنهما إلى حيات تلدغ ، أو معاول تهدم ..؟ إنهم لو أمعنوا النظر وتجردوا وتعمقوا لأيقنوا كما أيقن غيرهم،أن القرآن الذي أُنزل على محمد، لا يمكن بحال أن تفيض به نفس روحانية،ولا عقل باطن، ولا يمكن لامرىء أن تنعكس نفسه على سمعه وبصره كما يزعمون، فيرى الملك ، ويسمع صوته .

من أدلة صدق الوحي :

والأدلة على صدق الوحي المحمدي أكثر من تحصى . فإن القرآن الذي عرّفنا بسنن الله في الخلق وفي نظام الاجتماع ، وعرّفنا بمسائل علمية كونية كانت مجهولة في عصر التنزيل، ولم تُعرف إلا بعده بقرون، لا يتصور عاقل أن يكون من صنع إنسان عبقري،انقدح به عقله الباطن،نتيجة لتأملات الخلوة التي أثارت نفسه، وللأحلام والرؤى التي فرضت نفسها على مخيلته،ولتشبّعه بحالة معينة من فرط استغراقه فيها ، ولكنه وحي من الله نزل به الروح الأمين على قلبه ، وهو فوق الطرق الكسبية للعلم ، وفوق الإلهامات النفسية ، وخلاف ما هو مقرّر في علم النفس، وما هو متعارف من سيَر الحكماء والزعماء ، ولا يصح تعليله بما يسمونه قراءة الفكر ، ومراسلات الأفكار ، وإدراك المنوَّم بالاستهواء المغناطيسي .

---

(30) الوحي المحمدي : 93 .

والبون شاسع بين هذا العقل الخفي داخل الانسان ، وبين وجود عقل خفي خارجه ، وهو ما نسميه (الملك) .

والوحي الحقيقي : إنما يكون باتصال أحدهما بالآخر ، كاتصال الكهرباء الإيجابية بالسلبية ، وتولّد النور من اتصالهما (1) .

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا إليكم نورا مبينا» (النساء : 114) .

فوحي محمد صلى الله عليه وسلم لم ينبع من باطنه كما ينبع إلهام العباقرة ، لأنه في لحظات التلقي يكون في حالة لا شعورية ، حتى أن إرادته تنعدم مؤقتا . فإذا سرّي عنه وجد من نفسه إيمانا راسخا بأن ما أوحي به إليه هو من قِبَل الله، وليس من ذاته ، ولا هو من مكاشفاته ، ولا هو طوع إرادته ، كما أن حالة الوحي التي كان يعانيها ليست هوسا ، ولا صراعا ولا تشنّجا .

«... قلْ ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي . إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله . أفلا تعقلون؟» (يونس:15) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تلك الأعراض الجسمية التي تعتريه في اللحظة الخاطفة للوحي القرآني،الذي ينعدم فيه الطابع الشخصي انعداما كليا،هي من أبرز مميزاته عند النبي عن وحي السنة ، بالاضافة إلى عنصر آخر خارجي وهو أن القرآن والسنة يمثلان أسلوبين مختلفين . وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن تدوين أحاديثه ، حتى لا يختلط بالقرآن . قال تعالى : «وكذلك أوحينا إليك رُوحا من أمرنا ، ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الايمان ؟ ولكنْ جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا » (الشورى : 52) .

فسّر الضحاك وابن دينار الروح بالقرآن ، وسماه روحا ، لأن فيه حياة من موت الجهل .

وقد كان الحسن البصري يقول : (ياأهل القرآن : ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب ، كما أن الغيث ربيع الأرض) (31) .

وهل من دليل أصدق على صدق الوحي المحمدي وصحة نبوته من القرآن المعجز بنظمه البياني ، وإشاراته الغيبية ، وحقائقه العلمية ؟

وكل من قرأ القرآن على مُكث وفي تدبّر ، إزداد إيمانا بهذه الحقيقة ، ذلك أن ظاهرة الوحي هي مبدأ النبوة ، وشاهدُها الوحيد النبيء نفسه . فإن الظروف النفسية والزمنية التي تنزل فيها الآيات في وحدة كمية وموضوعية ، وتنقش في قلب النبيء فيعيها في ومضة خاطفة يعجز عن تفسيرها وتعليلها علم النفس النظري والتحليلي .

ومن هنا ، فإن كل تسمية للوحي تجعل له مدلولا نفسيا ، أو تردّ معناه إلى ميدان علم النفس مثل الحدس : (intuition) ، أو الالهام (inspiration) ، فهي تسمية خاطئة ، لأن الوحي القرآني مستقل عن الذات المحمدية كل الاستقلال ، ويتجلى ذلك في نقاط أهمها :

1 — أن الذات المحمدية لا تتحدث مع الذات المتكلّمة حين تخاطبها ، ولكنها تتلقى الوحي في صمت وتسليم . لذلك نرى الضمير المحمدي في الخطاب القرآني لا يرِد إلا في صورة المفرد المخاطب ، فلا حوار ولا جدل ولا مناجاة ، ولكنه تنزيل وتبليغ .

2 — انعدام الطابع الشخصي لمحمد صلى الله عليه وسلم في القرآن فإنه لما فقد أكرم زوجة ، وأحنى عم في سنة واحدة ، وحزن على فراقهما أيَّ حزن ، لن نجد أي صدى لذلك ولا لأحزانه في القرآن (32) .

كما أن انقطاع الوحي مدة أطول مما ينتظره النبيء ، تدل في وضوح على الانفصال ، سيما في بعض الحالات التي يحتاج فيها الرسول إلى اتخاذ قرار

---

(31) القرطبي : الجامع لاحكام القرآن : 55/16 (ط القاهرة : 1967) .
(32) انظر : الظاهرة القرآنية : لمالك بن نبي : 196 .

أو موقف . وأوضحُ مثال على ذلك موقفه إزاء قرار الهجرة . فلقد غادر أصحابه مكة فارين بدينهم ، ولكنه لم يستطع أن يغادرها إلا بأمر صريح من الوحي .

وفي موقف آخر كان ينتظر على أحرّ من الجمر وحي الله في حادثة الإفك،التي لم يفصل فيها الوحي إلا بعد شهر من الانتظار على مضض، كما ورد في حديث عائشة الذي رواه البخاري . ولا يخفى ما في هذه الفترة من حرج وحيرة ، حتى أن المستهزئين بالرسول،وجدوا الفرصة السانحة للثلب والنقد والتجريح ، والرسول وصحبه يتألمون لذلك . ولكنه الابتلاء والتمحيص .

3 — الفصل بين الفكرة الشخصية التي تنبعث من اجتهاد النبيء وبين الوحي القرآني المنزل عليه ، الذي كثيرا ما يأتي مخالفا ومعارضا لوجهته .

ومن ذلك مثلا أن حبه لعمه أبي طالب دفعه إلى الاستغفار له ، فنزل قوله تعالى : « ما كان للنبيء والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ... » (التوبة : 113) .

وهل أدل على انفصال شخصية الوحي عن شخصية الرسول من مخالفة القرآن لطبعه وعتابه الشديد له في مثل هذه الآية : « ما كان لنبيء أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الاخرة . والله عزيز حكيم . لو لا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم» (الأنفال : 67—68) .

فإن ما عوتب عليه ، وهو قبول الفداء من أسرى بدر أقرب إلى نفسه الكريمة وطبعه الرحيم ، وهو ما يختاره من عُرف بالرحمة والحلم وتاليف الخصم ، ولكن القرآن نبهه إلى ما هو أعدل في ميزان الحكمة الالهية . فهل ترى في ذلك ذنبا يستوجب هذا التثريب والتأنيب ، أو هو مقام الربوبية ، ومقام العبودية ، وسنة العروج بالحبيب ، في معارج التعليم والتأديب ؟

إن هذه الأدلة وغيرُها كثير ، لممّا ينفي نفيا قاطعا أن يكون القرآن من إلهام العبقرية المحمدية . ذلك أن عبقرية الانسان تحمل بالضرورة طابع الأرض ، حيث يخضع كل شيء لقانون الزمان والمكان ، ولكن القرآن يتخطى هذا القانون ، ويتجاوز حدود الأبعاد الضيقة للعبقرية الانسانية . فلم تكن فيه الذات المحمدية إلا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق ، يقف إزاءه العقل البشري حائرا أمام سَعته وعمقه ، وفي بنائه الفني ما يتحدى القدرة المبدعة لدى الانسان (33) .

وكما قال الفيلسوف توماس كارليل في كتاب (الابطال ،) : وقد انبعثت من أعماقه صرخة إعجاب بالقرآن : « إن هو إلا صدى متفجر من قلب الكون نفسه» .

أ لم يقل فيه منزله عزّ وجل : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (الحشر : 21) .

التهامي نقرة

(33) الظاهرة القرآنية : 238 (ط. دار الفكر. بيروت) .